« دفاع عن القصة »

فى السنوات الأخيرة زاد انتاج العالم من القصص زيادة مسرفة. وأصبحت القصة تروى على الشاشة وخشبة المسرح ، وفى الكتب والمجلات والصحف ، ويعلن عنها كما يعلن عن الصابون .. ويندر أن تجد فى انجلترا أو أمريكا سيدة لا تتأبط مخطوطة لقصة أو رواية . ولعله ليس من الضرورى أن تتوافر للقصة صلاحيات معينة فى كاتبها ، فكل من يملك محبرة ويعانى ضنكا أو ظلما صالح لأن يكتب ، على عكس كتابة المسرحية التى تحتاج الى قليل من الصبر وكثير من الجهد والمال لانتاجها على المسرح . بل ان السيرة الذاتية تعامل اليوم كفرع من فروع كتابة الرواية .. ولهذا تجد كل امرأة تحس فى أعماقها بأنها جان جاك روسو . وليس أكثر اثارة للأسى من أن يكون لديك الدوافع التى حركت روسو دون عبقريته ... وبالتالى لم تعد لعملية التأليف الخيالى فى رأى البعض سمعة طيبة .

وأحسب أن القصة نشاط ممتاز من أنشطة العقل البشرى ، وهو نشاط يقف على قدم المساواة مع غيره مما كرس له أعظم رجال العلم حياتهم ، وأحسب كذلك أن الحقيقة تعرف عن طريق القصة، وأنها ـ أى الأخيرة ـ مفيدة للبشرية . ورغم أن صفحات التاريخ حافلة بعدم الثقة فى القصة ، الا أنها لم تتوقف عن أن تجد لنفسها محبين وعاطفيين . غير أن قادة الفكر المعاصر يتحدثون عنها دائما بسوء قصد ، حتى وهم يبدون تعاطفهم معها ، كما لو كانت اغراء يجب أن يقاومه الصالحون من البشر .

منذ ألف عام تقريبا قال نيقولا مستشار جامعة باريس : « نحن فى خطر ، نحن الذين نقرأ كتابات الشعراء الملحدين » . ولم يكن هذا الخطر ناتجا

عن الالحاد ، وانما جاءت الصرخة لكون هذا الأدب جميلا للغاية ٠٠ومن الضرورى أن نتتبع هذا الموقف الذهنى خلال القرون الماضية ٠ فنحن نجد أن الكنيسة الكاثوليكية تكون أحيانا هى المخدرة للبشرية ضد رواة القصص ، وفى أحيان أخرى نجد أن المذهب البيوريتانى هو الذى يمنع المسارح، وبالمثل نجد التجارة تلعب دورا هنا فتترك قراءة الروايات لجمهور النساء باعتبارهن يقبلن عليها دون الرجال كما يقبلن على الثرثرة أو صندوق الشيكولاتة أو لعب الورق ٠ ولا شك أن كتاب القصة والرواية فى الماضى لم يكونوا يحظون بمكانة طيبة فى المجتمع ٠ وباستثناء فولتير كان ديكنز أكثر احتراما فى حياته من أى كاتب آخر ، لكن أى الوظيفتين كانت تعتبر أكثر جدية : وظيفته أم وظيفة رئيس الوزراء جلاد ستون ؟!

وهناك لون من القصص يجد حظا كبيرا من الانتشار ، وهو ما نسميه بالرواية البوليسية ٠ لكنها ليست ـ ولا تدعى أن تكون ـ عملا فنيا ، قدر ما هى تدريب على البراعة والذكاء ، ومطالعتها تعادل حل مسألة من مسائل الكلمات المتقاطعة التى تنشرها الصحف ٠٠٠ وليس ثمة ضرر بلا شك فى قراءة هذا اللون ، الا حين تكون مدعاة للفخر فى أوساط المتعلمين الذين يعرفون عن قراءة الأدب الخيالى الجاد ، بدعوى أنهم ليسوا من الحماقة بحيث يتناولونه تناولا جادا ٠٠

غير أن هناك جانبا آخر من جوانب المشكلة ٠٠ مشكلة وضع القصة فى خريطة الأنواع الأدبية ومكانتها ودورها الاجتماعى ٠٠ وهو جانب يمثله كثيرون، خاصة من الشباب ، ممن ينتمون للتيار السياسى ٠ وهؤلاء ينعتون بالتمييز بين القصة الخالصة والقصة ذات المحتوى الاجتماعى ٠ فمن رأيهم أن أول واجبات الرواية هو أن تعكس بأية درجة روح عصرها ، وأن الفردية الرومانتيكية قد ماتت نظرا لأن العالم يميل الى الشكل الجماعى للدولة، وأن المشكلتين السائدتين فى عصرنا هما عدم المساواة الاقتصادية ومنع الحرب ، وأن الروايات التى لا تناقش هاتين المشكلتين تعتبر تافهة ومعادية للمجتمع بلا شك ٠ وهكذا تكون كلمة السر هى « الوعى الاجتماعى » ، وهو أمر وظف توظيفا ليكون قيمة جمالية ٠ أما الحقيقة والجمال فيعتبران اختبارين باليين فى تقدير العمل الفنى الذى يجب أن ينظر اليه نظرة جادة وأن تكون له نواة ثورية اجتماعية ٠ وقد يكون من السهل فهم هذا الرأى ، لكن القصص الخالصة ـ قصص الحب مثلا ـ تعتبر مخدرا فى عرفهم ، فهى تقدم لقارئها لذة لكنها تبرد حدة السخط المرغوب ، وتقود الناس الى النظر من الداخل بدلا من التماس الواقع الخارجى المشحون ٠ وهو أمر ينافى حقيقة الطبيعة الانسانية ٠٠فسعادة الانسان أو شقاؤه، قيمته أو تفاهته ، تتوقف على فلسفته الخاصة ، على قوته فى الحب واستجابته له ، على مقدرته فى الاستمتاع بأشياء صغيرة ، على ايمانه وعدم ايمانه بالسماء والجحيم ، وباختصار على طبيعة خياله وقوته ٠ ان القصة والشعر يعلمانه هذا بطريقة لا توقف فيها ، انهما لا يجعلان من النظرية الاقتصادية عقيدة محترقة وانما يجعلانها بالتعبير الفلسفى مسألة سواء ٠ انهما يقودان الناس الى تفضيل

كتابة مرثية الشاعر جراى على الاستيلاء على ميناء كويبك ، والى تفضيل الفوز بالحبيبة على الفوز بالباستيل نظرا لأن الخلود طويل وعمر الشباب قصير • ان رواة القصص العظـــام يقولون بأن السجون تبنى وتقام دائما ، أما النساء فلا يقمن أو يشـــيدن للأسف • وهم يقولون مـرة أخـرى بأن الســجون لاتصنعها بيئة الانسـان ولكن يصنعها الانسان نفسه ، بمخاوفه ، بأحقاده ، بحسـده ، بضعفه ، ولا مفر منهـا الا بحكمته التأملية ، أو بأعمال التسـامى الثلاثة العظيمة ـ وهى الحب والشـعر والموت

وهـكذا تتلخص الاعتراضـــات على القصة فى ثلاثة :

● أولا : وجود احساس الناس العاديين بأن القصة ترف ومتعة ووســـيلة من وسائل تزجيـة الفراغ بشـــكل سار تقريبا •

● ثانيا : وجود الاعتراض العام لرجال العلم وقادة الفكر المعاصر بأن القصـة عمل غير دقيق وأن الانغماس فيه ينتج انفعالات مضطربة وغير مقبولة ، وأنها لاتستطيع أن تدفع الحقيقة الى الأمام ، وبالتالى ينبغى ألا تؤخذ بمأخذ الجد •

● ثالثا : وجود اعتراض أولئك الذين يعتقـدون مخلصـين بأن حالة العـــالم الراهنة لا تتطلب القصة الخالصة لأنهـا لا تفعل شيئا فى سبيل دفع تحسـين الظروف الانسانية الى الأمام قدر ماتؤخر عجلة التقدم وتعطلها •

والرد على هـذه الاعتراضات بفحص روايات الماضى العظيمة وأثرها فى المصير الانسانى قد يؤدى الى الوقوع فى الخلط، وقد يثير حجة انتمائها للماضى وعـدم صلاحيتها للتطبيق فى الحاضر • لكن مما يطمئن أن الانسان يختلف سـلوكه باختلاف طريقة تفـكيره ، فهو يسـلك سلوكا مختلفا فى كل لحظة لأنه فى كل لحظة يفكر بطريقة مختلفة ، وعن طريق نظرية الواقع هـــذه يتأثر نظامه الكلى للقيم ••• أما الفنان فهو ذلك الانسان الذى طور ـ بدرجة عالية ـ المقـــدرة الخيالية على النفاذ فى ظواهر الأشـياء واكتشاف جوهرها الأســاسى • والذى يفرق الفنان عن الانسان العادى هنا هو درجة كثافة النفاذ الى ما وراء ظواهر الأشياء ، تلك الدرجة التى ترتبط أوثق الارتباط بالخيال • وكلما توقف الخيال عن الكسل، وكلما أصبح سريعا، ناريا، قويا ، نفاذا ، اشتدت فاعليته وازداد تأثيره • وهذه كلها صفات مطلوبة لخيال الفنـــان ، على عكس رجل العلم الذى يضـــع لخياله حدودا ثابتة لا تتزحزح بسهولة •••

ان وظيفة القصة هى أن تحطم هذه الحدود التى يضعها رجل العلم للخيال ، وأن تذيب مجرى الخيال ، وأن تمكنه من الجريان مرة أخرى •••لكن ما الذى يثير مشاهد تمثال أفروديت اليونانى مثلا ؟ لا يثيره بالطبع انفعال يتصل بموضوع التمثال أو بشبهه الدقيق ، لأنه لايماثل امرأة معينة فى اللون أو فى الشـــكل مماثلة دقيقة ، كما لايثيره اسـتيعاب التمكن الفنى للفنان من وسيلته ، لأن معظمنا جاهل بدقائق فن النحت ، ولكن الذى يثيره حقا هو أن التمثال وسـيلة اتصال بينه وبين العالم ، وهكذا الحال فى الفنون الأخرى • فهى تجعل الانسان

يدرك الأشياء العـــالمية العامة ، وتأذن لخياله بالتدفق ، وتزيح الستار عن نافذة تلك الحجرة الضـــيقة التى هى حياته المحدودة بالموت ... غير أن القصـــة أيضا ليست عميلا للأخلاق ، وليســت عميلا للتربية ، بل ليس الفنى كله كما قال تولسوى عميلا للمنفعة . فالقصة العظيمة تمثل تدفقا فى الخيال وجريانا فى نهره .

وثمة فارق بين ما يؤديه العمل الخيالى للقارىء وبين تمكين خيال هذا القارىء من التدفق .. لكن اذا أنا حررت خيال القارىء بقصة الحب التى أرويها ، بخداع أو بغير خداع ، حتى تكتمل لديه بعـد قراءتها بصيرة أكثر حيوية بالحب نفسه تفوق ما كان لديه ، واذا أنا اســتطعت للحظـــة أن أجعل روحـه تتحرك عبر صفحاتى وتسكن منطقة من الواقع كانت لديه عنهـــا فيما مضى نظرات خاطفة ومشـكوك فيها ، اذا أنا فعلت هـــذا فلا شك أننى فنان عظيم . وأنا بالطبع أعمل فى الظلام بالنسبة للقارىء الخاص الذى يعنينى . فلست أعرف من يكون هذا القارىء . ولســـت أعرف طبيعة خياله ، ولست استطيع ، اذا اردت ، أن أعمل لأنتج تأثيرا خاصا عليـه ، ولن أفعـــل اذا اســتطعت . ذلك لأن كل مايفعله راوى القصة هو أن يعتبر قصته لوحا من الزجاج يظهر له من خلال ضوء الأشياء العامة ، وأن يحفظ هذا الزجاج واضحا نظيفا .

ان القصـــة لا تمتع ، أو تخبر ، أو تعلم ، رغم أنها قد تفعل هـــذا كله . ولكنها تعيـد احياء استعاب القـــارىء للواقع وفهمه له ، وهى تجعل خيـاله يتدفق وتعرفه عن طريق حدس طبائع الاشياء . وهنا تظهر العلاقة بين القصة والبحث العلمى والتطلع الدينى ، وكلها أشياء تهتم باكتشاف طبيعة الاشياء ، وفى الاكتشاف تقود الانسان المكتشف، الى التوازن وكمال الحياة ...

ان الفن لايخلق الجمـال ، ولـــكنه يكشفه . وقد قال الشاعر شيلى :« ان الشعر يرفع النقاب عن الجمال المخبوء فى العالم » ،وهو قول يصدق على القصة كمايصدق على الشعر ،وهو كذلك يقول ان « تأثير الشعر يتضاءل بنسبة دقيقة حتى يصل الى هدفة الاخلاقى » ، وهكذا الحال فى القصة . اذ يجب أن تـكون أداة من أدوات الخيال الخالص ، يستطيع بها الانسان كما يقول شيللى أن «يتخيل بكثافة وذكاء » ... واذا نحن سعينا الى الدفاع عنهـا على أساس المنفعـــة العالمية فسوف نفزع كما فزع تولستوى، لكن اذا نحن آمنا بأن ثمة قيمة فى الحب والشعر والفهم الصوفى ، فعندئذ يكون موقفنا حصينا ، لأن قيمة القصـة هى فى رفع الستائر وفتح النوافذ ، وادخال الضـوء .

تلك خلاصة لآراء واحـــد من كتاب القصة فى هـذا القرن ، وهو تشارلز مورجان الذى عرف بتعدد نشاطه الفنى وتنوعه من القصة الى المسرحية الى الشعر الى النقد . وقد نال عدة جوائز على عدد من رواياته ، أشهرها « صورة فى المرآة » و « الرحلة » . وفى هذه المحاضرة التى دافع فيها عن القصة يبدو مورجان كاتبا مثاليا يؤمن بالقيمة الجمالية كأساس فى الفن لا بديل له ولا منافس . ورغم أن المحاضرة لم يضمها كتاب الا بعد وفاته ففيها تأكيد على ما عرف عنه من آراء متشـــددة فى ربط الفن بذاتية خالقه

ومحاولة تخليصه من الرواسب الاجتماعية التى أصبحت تشكل اليوم « أرضية » الفن المعاصر بأسره ، نتيجة لزيادة انتاج العالم من الثورات الاجتماعية التى تسببت بدورها فى زيادة انتاجه من القصص والفنون بشكل عام • والحق أن احدا لا ينكر فضل الخيال الخلاق أو القيمة الجمالية فى الفن ، لكن مما لاينكره احد أيضا أن المحتوى الاجتماعى لا يتعارض مع الخيال الخلاق أو القيمة الجمالية الخالصة • ولئن ضحى البعض بهما مقابل المحتوى الاجتماعى الا أن هذا ليس مبررا لانكارهما على مدرسة الواقعية الاشتراكية أو الاجتماعية • أما الخيال الخالص فاحسب أن من الصعب وجوده الا فى حالة العمد والاصرار من صاحبه • ذلك لأن الفنان أو القاص الذى يعيش فى مجتمع يكون من الصعب عليه أن يتحرر منه تحررا عفويا • فاذا تحرر يكون تحرره بمثابة الهروب والاغتراب المتعمد وهما حالتان تنتجان فى أساسهما من الموقف الذاتى الخالص ورفض الانتماء ، وتغليب الذات على الموضوع ، وما الى ذلك من عوامل تحرر الفنان من مجتمعه ، وتشعره بضآلة الحياة وتفاهتها ، وتسكنه برجا عاجيا لا يبرحه الا اذا شفى من علته •• علة التضخم فى ذاته •

***

زوايا وأنباء ••

نيويورك :

● كل شىء يرتفع لا بد أن يميل ••

عنوان مجموعة قصصية للكاتبة فلانرى أوكنور فى ٢٦٩ صفحة صدرت عن دار فارار وشتراوس وجيرو • المؤلفة توفيت فى العام الماضى عن ٣٨ سنة ولم تنشر هذه المجموعة فى حياتها• من رأى فلانرى أن كاتب القصة يجب أن يصور الواقع قبل أن يستعلى عليه• المجموعة مكونة من ٩ قصص ، تدور موضوعاتها حول الحياة المنزلية الأمريكية وأخطارها ، وكذلك حول بعض المواقف العادية فى هذه الحياة • صدر لفلانرى من قبل « الدم العاقل » وهى أول رواية لها ثم مجموعة من القصص بعنوان : « الرجل الطيب من الصعب ايجاده » وأخيرا رواية بعنوان : « العنف وسع نطاق المشكلة » •

● شجرة خضراء فى جد •• عنوان رواية لألان شارب فى ٣٧١ صفحة صدرت عن دار المكتبة الأمريكية الجديدة• الكاتب من أصل سكوتلندى وعمره ٣١ سنة • أما الرواية فتعالج موضوعا غريبا هو العلاقات المنحرفة بين الشباب وانفصالهم وغربتهم وشذوذهم الجنسى ! •• من الغريب أيضا أن أمثال هذه الموضوعات هى السائدة فيما يكتبه الجيل الجديد من القصصيين والروائيين فى أوربا الغربية وأمريكا على السواء !

باريس :

● أعلن جان بول سارتر انه لن يسافر الى أمريكا كما سبق أن أعلن لالقاء بعض المحاضرات فى جامعاتها •• السبب هو استنكاره لسياسة الولايات المتحدة ازاء فيتنام •

لندن :

● جيزيللا السنر •• كاتبة ألمانية جديدة نالت أخيرا جائزة فورمنتور الفرنسية على روايتها «الأقزام العمالقة» •• ترجمت الرواية الى الانجليزية فى الشهر الماضى وصدرت عن دار ويدينفلد ونيكلسون ، لكنها لم تعجب النقاد !